المآتم والحداد

لا يدرى بالتأكيد من الذي سن شريعة الحداد على الموتى واي شعب كان البادئ بها ولكن الطبع يقضي بان ذلك كان عهيداً جداً لان الموت وان كان مألوفا كسائر حالات الانسان الا انه ما برح ولن يبرح مخصوصاً بالتنويه والاشارة اكثر من ولادة المولود وعرس المتزوج وما يجري هذا المجرى في اثناء الحياة

الا ان الناس مع اجماعهم على المآتم والحداد كانوا يختلفون اختلافا كبيراً في صورها واشكالها فان المصريين القدماء كانوا يبطلون اعمال المحاكم عند موت ملوكهم مدة شهرين كاملين يواظبون فيهما على الصوم والعبادة وكانت النساء تطوف نائحات معولات، اياما تقصر وتطول على حسب قدر الميت ومكانته بين قومه وهو ما لا تزال آثاره الى الان اذ تقفل دور الحكومات حداداً على الملوك وتبطل فيها الحفلات

وكان العبرانيون يبكون موتاهم ويحدون عليهم شهراً كاملا وينوحون بالشبابات تهييجاً للحزن ويمشون حفاة ويعفرون وجوههم ويلبسون المسوح الخشنة وهو ما لا يزال يجري شيء منه للان ولا سيما في هذه البلاد اذ تمشي النساء معولات وراء الميت ويؤتى من اجله بالنادبات تهييجاً للاحزان واستعباراً للعيون . وكان الوثنيون يلبسون الميت منهم ثوبا ابيض ويسيرون وراءه بالموسيقى حتى اذا دنوا من اللحد وضعوا في فمه قطعة من النقود اجرة

لملك الموت حتى يعبر بروحه الى الابدية ومنهم من كانوا يحرقون اجساد موتاهم ويضعون رمادها في قوارير ثم يجمعون الدموع التي سقطت حزناً عليه ويضعونها في قوارير ويودعونها اللحد مع قوارير الرماد ولا تزال عادة احراق الموتى شائعة لدى ملايين من البشر في هذا العهد ولقد كانت المسيحية ابطلتها الا ان البعض منهم عادوا اليها الان وهي جارية في اكثر اوربا ولكن لا يتبعها الا اكابرهم

اما الحداد بخصوصه فلا يدرى له تاريخ ايضاً ولكنه ممعن في القدم وقد ورد ذكره في التوراة على شاول وهيرودس وموسى وهارون ولكنه كان مختلفاً ايضاً كاختلاف الشعوب فان العبرانيين كانوا يحلقون شعور رؤوسهم ساعة موت اقربائهم ويعفرونها بالرماد ويمشون حفاة وكان المصريون يمتنعون عن الاستحمام وشرب الخمر ويطلقون شعورهم بعكس العبرانيين ولكنهم كانوا مثلهم يحثون الرماد على رؤوسهم وكانت نساؤهم يلطخن رؤوسهن بالوحل ويعولن في الطرقات كل مدة الحداد

اما حلق الشعور فلا يزال جاريا للان بين اليابانيين وهم يعبرون به عن فرط الحزن في كل حالة حتى لقد روي عنهم في مدة هذه الحرب انهم كانوا يحلقون شعر رؤوسهم حين ينهزمون او لا ينجحون في غزوة وقد كان اخص ذلك في حصار بور ارثر اذ قرأنا ان شعور كثيرين قد حلقت من فرط الكآبة والحزن لاخفاقهم في امتلاك ذاك الحصن المنيع او سد مدخله حتى لا ينجو منه الاسطول الروسي

وقد روي عن نساء اثينا انهن كن يحلقن شعورهن ايضاً دون الرجال ويخدشن وجوههن بالاظافر حتى تسيل دماؤها فتشوه ولكن سولون كان

يمنع هذه العادة الذميمة الا عن اقارب الميت الادنين توصلاً الى الاقلاع عنها اصلاً . وكان الفرس يحلقون رؤوسهم ايضاً ويزيدون عليه انهم يجزون اعراف جيادهم وكان بعض الشعوب يمنعون الحداد على من بلغ الخمسين اعتقاداً منهم بانه استوفى العمر ولا يصح تكليفه شيئاً وكذلك الغلام لحد السبع سنين فانه كان يعفى من ذلك ولكن الرومانيين كانوا يرخون شعورهم ويمتنعون عن الملذات والملاهي كما انهم كانوا يبالغون في الرفق باهل الميت فلا يسمحون باقامة الدعاوى عليهم مدة حدادهم ولعل هذا خير ما يعزى به اهل الميت . الا انه من اغرب العادات في الحدد ان بعض الشعوب كانوا يلزمون الرجال الذين يريدون الحداد ان يلبسوا ملابس النساء اشارة الى ان الحزن ضرب من الضعف وهو من شأنهن والى ذلك يشير ابو تمام في بعض تعازيه

خلقنا رجالاً للتصبر والاسى وتلك الغواني للبكا والمآتم

اما علامات الحداد ومدته فلا تدرى ايضاً بالتحقيق ولكن المعروف عن العرب انهم كانوا يحدون سنة كاملة وهو ما لا يزال يجري للان وربما كانوا يحلقون شعورهم ايضاً ويخدشون وجوههم ولا يشربون الخمر كما فعل المهلهل الذي مستهتراً كان بالشراب فانه بعد ان قتل كليب هجر الخمر حداداً عليه . وقد اشار لبيد الشاعر الى شيء من عادات الحداد بقوله يخاطب ابنتيه قبل موته

تمنى ابنتاي ان يعيش ابوهما وهل انا الا من ربيعة اومضر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه ولا تخدشا وجهاً ولا تحلقا شعرا
وقولا هو الخل الذي لا صديقه اضاع ولا خان الخليل ولا غدر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقداعتذر

اما اشارة الحداد فقد كانت لبس السواد ولعل هذا قديم جداً اذ هو مما يقتضيه الطبع لان رؤية السواد مما تنقبض له النفس ويحس له بالوحشة كما هو الشأن في الليل فكانوا يختارونه لمناسبة الحال له وهو لا يزال كثير الشيوع للان ولكن الكثيرين قد استبدلوه بوضع قطعة من نسيج اسود على الذراع فتغني عن سواد الملابس كلها ويقال ان اهل الاندلس كانوا يلبسون البياض حداداً على موتاهم وقد عالل احد الشعراء ذلك تعليلا لطيفاً فقال

يقولون البياض لباس حزن باندلس فقلت من الصواب
الم ترني لبست بياض شيبي لاني قد حزنت على الشباب

الا ان لبس شيء من البياض علامة للحداد لا يزال جاريا للان في الحداد الرسمي على الاكابر والوجوه . ولعل المآتم والحداد مما لا تبطله مدنية مهما جلت وعظمت لانه على ما يظهر طبيعي كالحزن في النفس او هو مما يراد به الدلالة على الثاكلين وهم جائلون بين من لا يعرفونهم حتى يكونوا ممتازين بالرفق والتعزية او حتى لا يكلفوا ما يكلفه سواهم من الدعوات والحفلات وسائر مضايقات المدنية الا ان المآتم على صورها الحاضرة في هذه البلاد وما يشبهها حيث تنوح النادبات وتلطم الخدود ويسار وراء الميت بالعويل من النساء خاصة فمما يحسن منعه بالوعظ في الجوامع والارشاد اليه في الجرائد لان الطبيعة لا تقتضيه الى هذا الحد كما ان وضع الزهور على النعوش والالحاد مما قد يمتنع ايضاً بالتدريج لانه اسراف بلا جدوى